الحياة والموت في عاشوراء: (إلّا قنطرة، إلّا سعادة، إلّا جميلاً)

أ.د. بتول زين الدين

دكتوراه في علوم الإعلام والاتصال / أستاذةٌ جامعية في كلّية الإعلام

الجامعة اللبنانية / لبنان

ملخص البحث

في هذا البحث نتعرّف على الحياة بمعناها القرآني، ومعنى الحياة الطيّبة في القرآن الكريم وكيفيّة انعكاسها في كربلاء، فنوضّح معالم الحياة الطيّبة المستوحاة من واقعة عاشوراء ومجالس العزاء.

ينقسم البحث إلى محورين:

المحور الأوّل: الحياة في القرآن الكريم: ﴿**لِمَا يُحْيِيكُمْ، لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا، فَلَنُحْيِيَنَّهُ**﴾.

المحور الثاني: الحياة والموت في عاشوراء: ﴿**إلّا قنطرة، إلّا سعادة، إلّا جيلًا**﴾.

المحور الأوّل: الحياة في القرآن الكريم: ﴿**مَا يُحْيِيكُمْ، لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا، فَلَنُحْيِيَنَّهُ**﴾

إذا أردنا فهم الحياة بالمعنى القرآني لها، يتبادر إلى ذهننا عدّة آيات قرآنيّة، أبرزها:

- ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ [الأنفال/ من الآية ٢٤].
- ﴿**لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ [يس/ ٧٠].
- ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ [النحل/ ٩٧].

نبدأ بتوضيح معنى الحياة الطيّبة من خلال الآية الأخيرة: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ [النحل/ ٩٧]. الإحياء إلقاء الحياة في الشيء وإفاضتها عليه، فالجملة بلفظها دالةٌ على أنّ الله سبحانه يكرم المؤمن الذي يعمل صالحًا بحياةٍ جديدةٍ غير ما يشاركه سائر الناس من الحياة العامة[1].

وهي تتضمّن وعدًا جميلًا للمؤمنين إنْ عملوا عملًا صالحًا وبشرى للإناث أنّ الله لا يفرّق بينهن وبين الذكور في قبول إيمانهن، ولا أثر عملهن الصالح الذي هو الإحياء بحياةٍ طيّبةٍ والأجر بأحسن العمل[2] . و(الحياة الطيّبة) هي الحياة التي يمتلك فيها الإنسان قلبًا مطمئنًا وروحًا مؤمنة، ولا ريب في أنّ هذا الإنسان لا يعرف الخوف ولا يعتريه الحزن. تبيّن الآية أنّ مثل الإنسان الفاقد الإيمان والعمل الصالح كمثل الجسد الميّت لا روح فيه:

(فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طيّبة)[٣]، و(الحياة الطيّبة) في هذه الدنيا هي النتاج الطبيعي للعمل الصالح النابع من الإيمان، أي أن المجتمع البشري سيعيش حينها حياةً هادئةً مطمئنةً ملؤها الرفاه والسلم والمحبة والتعاون، بل وكلّ ما يرتبط بالمجتمع من المفاهيم الإنسانية، وفي أمان من الآلام الناتجة عن الاستكبار والظلم والطغيان وعبادة الأهواء والأنانيّة التي تملأ الدنيا ظلامًا وظلامات[٤].

الإنسان الذي يحيا حياةً طيّبةً يجد في نفسه من البهاء والكمال والقوة والعزة واللذة والسرور ما لا يقدر بقدر. وهو مستغرقٌ في حياةٍ دائمةٍ لا زوال لها، ونعمةٍ باقيةٍ لا نفاد لها، ولا ألم فيها، ولا كدورة تكدّرها، وسعادة لا شقاء معها[٥]. فهي حياةٌ حقيقيّةٌ جديدةٌ يفيضها الله سبحانه عليهم. ومنها أنّها الحياة الدنيوية المقارنة للقناعة والرضا بما قسم الله سبحانه فإنّها أطيب الحياة.[٦]

وإذا ربطنا الحياة الطيّبة بحالة الاطمئنان لدى الإنسان ننتقل لتفسير الآية الكريمة: ﴿**وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ**﴾ [الرعد/ ٢٧]. ﴿**الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [الرعد/ ٢٨]. فنجد أنّه لا مجال للاضطراب هنا، لا قلق حيال الماضي أو الحاضر أو المستقبل، ولا بسبب سوء تقدير الآخرين لجهودنا. توضّح لنا الآية أسباب عدم الطمأنينة، ثمّ تعلّمنا كيف نحصّلها من خلال ذكره تعالى كوقايةٍ ووسيلةٍ دفاعية.

والاطمئنان إلى الشيء السكون إليه، الإيمان واطمئنان القلب بذكر الله هو الإنابة وذلك من العبد تهيؤ يستعقب عطيّة الهداية الإلهيّة [٧]. يبيّن القرآن الكريم أقصر الطرق من خلال جملةٍ كبيرة المعنى، حيث يقول: ألا بذكر الله تطمئن القلوب! ولتوضيح هذا المعنى ومعرفة عوامل القلق والاضطراب لا بدّ من ملاحظة ما يأتي:

* يحدث الاضطراب مرةً بسبب ما يجول في فكر الإنسان عن المستقبل المظلم، لكن الإيمان بالله القادر المتعال الرحمن الرحيم الذي تكفّل برحمة عباده يمحو آثار القلق والاضطراب، ويمنحه الاطمئنان في مقابل هذه الأحداث، ويؤكّد له أنّك لستَ وحيدًا، بل لك ربٌّ قادرٌ رحيم.

* ومرةً يشغل فكر الإنسان ماضيه الأسود فيمسي قلقًا بسبب الذنوب التي ارتكبها والتقصير والزلّات، ولكنّ بالنظر إلى أنّ الله غفّار الذنوب، وقابل التوبة، وغفور رحيم، فإنّ هذه الصفات تمنح الإنسان الثقة وتجعله أكثر اطمئنانًا وتقول له: اعتذر إلى الله من

سوالف أعمالك السيّئة، واتّجه إليه بالنية الصادقة، (عفا الله عمّا سلف).

* ويمكن أنْ يكون أصل المشقّة هي التي تؤذي الإنسان، كالإحساس بتفاهة الحياة أو اللاهدفية، ولكن المؤمن بالله الذي يعتقد أنّ الهدف من الحياة هو السير نحو التكامل المعنوي والمادي، ويرى أنّ كلّ الحوادث تصبّ في هذا الإطار، سوف لا يحسّ باللاهدفية ولا يضطرب في المسيرة.

* ومن العوامل الأخرى أنّ الإنسان مرّةً يتحمّل كثيرًا من المتاعب للوصول إلى الهدف، ولكن لا يرى من يقيّم أعماله ويشكر له هذا السعي، وهذه العمليّة تؤلمه كثيرًا فيعيش حالةً من الاضطراب والقلق، وأمّا إذا علم أنّ هناك من يعلم بهذا السعي ويشكره عليه ويثيبه، فليس للاضطراب والقلق هنا محلٌّ من الإعراب.

فمن يعلم بأنّ كلّ مثقال ذرّةٍ من أعماله محسوبة ومكتوبة، سيكون قلبه مطمئنًا وباله مرتاحًا بالنسبة لما يقوم به. ومن يعلم أنّه مخلوقٌ بلطف الله ورحمته ﴿**إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾، لا بدّ أنْ يكون متفائلًا ومليئًا بالأمل. ومن يعلم أنّ طريقه واضح، وأنّ مستقبله أفضل من ماضيه ﴿**والآخرة خير وأبقى**﴾، يكون قلبه أكثر اطمئنانًا[٨]، مستمرًا بأطيب الحياة أو العيش وحسن المرجع، وبذلك يظهر اتصالها بما قبلها، فإنّ طيب العيش من آثار اطمئنان القلب.[٩]

﴿**لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾

بعد أنْ عرضنا معنى الاطمئنان في القرآن الكريم وكيفيّة تحصيله، لا بدّ أنْ نبيّن المعنى القرآني للحياة من خلال الآية الكريمة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ**﴾ [الأنفال/ من الآية ٢٤]. يدعونا الله في هذه الآية للاستجابة إلى دعوته للحياة بمعناها الحقيقي: (لِمَا يُحْيِيكُمْ)! وحيلولته سبحانه بين المرء وقلبه، يقطع منبت كلّ عذرٍ في عدم استجابته لله والرسول إذا دعاه لما يحييه[١٠].

في هذه الآية نتعرّف على الحياة بمعناها القرآني. الإسلام دعوة للحياة، هدف الإسلام هو الحياة على جميع الأصعدة، حيث يبعث الحركة في كلّ جوانب الحياة، ويحيي الفكر والثقافة والإحساس بالمسؤولية، ويوجد التكامل والرقي والوحدة والتألف، فهو إذًا يبعث الحياة في

البشرية بكلّ معنى الكلمة: الحياة المعنوية والمادية والثقافية والاقتصادية والسياسية، الحياة الأخلاقية والاجتماعية، وأخيرًا الحياة والعيش بالمعنى الصحيح على جميع الأصعدة.

كان الناس موتى قبل بزوغ الإسلام وفاقدي الحياة بمعناها القرآني، كانوا يعيشون الحياة الحيوانية والماديّة، وكانوا بعيدين عن الحياة الإنسانية والمعنوية والعقلية، فجاء القرآن ليدعوهم إلى الحياة[١١].

﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾

القرآن الكريم يجعل (الإيمان) هو (الحياة)، و(المؤمنين) هم (الأحياء)، و(الكفّار) هم (الموتى)، ففي جانب يذكر عنوان (**حَيًّا**)، وفي الطرف المقابل عنوان (الكافرين)، فهذه هي الحياة والموت المعنوي اللذان هما أعلى بمراتب من الموت والحياة الظاهريين. وآثارهما أوسع وأشمل، فإذا كانت الحياة والمعيشة بمعنى (التنفس)، و(أكل الطعام)، و(الحركة)، فإنّ هذه الأعمال كلّها تقوم بها الحيوانات، فهذه ليست حياةً إنسانيةً، الحياة الإنسانية هي تفتح أزهار العقل والفهم والملكات الرقيقة في روح الإنسان، وكذلك التقوى والإيثار والتضحية والتحكم بالنفس، والتحلي بالفضيلة والأخلاق، والقرآن ينمي هذه الحياة في وجود الإنسان.

والخلاصة: أنّ الناس ينقسمون حيال دعوة القرآن الكريم إلى مجموعتين:

مجموعةٍ حيّةٍ يقظة تلبّي تلك الدعوة، وتلتفت إلى إنذاراتها، ومجموعةٍ من الكفّار ذوي القلوب الميتة، الذين لا تؤمل منهم أيّة استجابةٍ أبدًا، ولكن هذه الإنذارات سبب في إتمام الحجة عليهم، وتحقّق أمر العذاب بحقهم[١٢].

إذًا، في الإنسان أنواع من الحياة والموت: النباتي، الحيواني. أمّا النوع الثالث من الحياة الخاص بالإنسان فقط، فهو (الحياة الإنسانية والروحية). وهو ما قصدته الروايات بقولها (حياة القلوب). إذ إنّ المقصود بالقلب هنا " الروح والعقل والعواطف " الإنسانية [١٣].

وفي موضعٍ آخر يقول تعالى: **﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾**[١٤]. من مجموع هذه التعبيرات وتعبيرات كثيرة أخرى شبيهة لها يظهر بوضوح أنّ القرآن يعدّ محور الحياة والموت، هو ذلك المحور الإنساني والعقلاني، إذ إنّ قيمة الإنسان تكمن في هذا المحور.

إنّ أسباب الموت والحياة الروحية كثيرةٌ جدًّا، ولكن القدر المسلَّم به هو أنّ النفاق والكبر والغرور والعصبية والجهل والكبائر، كلها تميت القلب[١٥]. فمن لا يعبأ بظلامة المظلوم، ولا يلبّي نداء الحق، ويفكّر في نفسه فقط، ويعدّ نفسه غريبًا حتى عن أقرب الأقرباء، هل يعدّ إنسانًا حيًا؟

الجميل أنّ القرآن يعدّ الموتى الذين كان لموتهم آثار الحياة الإنسانية أحياءً، ولكن الأحياء الذين ليس فيهم أيّ من آثار الحياة الإنسانية فإنّهم في منطق القرآن الكريم أموات أذلاء[١٦]. من هنا وصف القرآن الكريم الشهداء بالأحياء: ﴿**بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾، ﴿**ولكنْ لا تَشْعرونَ**﴾. والمقصود من الحياة في الآية هي الحياة البرزخية في عالم ما بعد الموت، لا الحياة الجسمانية والمادية. إذًا وحده المقتول في سبيل الله لا يموت.

يخبرنا الله في كتابه عن هدف خلقه للحياة والموت: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُور**﴾ [الملك/ ٢].

في الزيارة الشعبانيّة للإمام الحسين ﷺ نقول: "أشهد أنّك قُتِلتَ ولمْ تَمتْ، بل برجاء حياتِك حييتْ قلوبُ شيعتك". فأيّ موتٍ اختار الحسين ﷺ في كربلاء؟ وكيف تنعكس معالم الحياة الطيّبة المستوحاة من واقعة عاشوراء على نمط الحياة؟ هذا ما سنجيب عنه في المحور الثاني الآتي.

المحور الثاني: معالم الحياة الطيّبة المستوحاة من واقعة عاشوراء

يقول المفكّر الفرنسي موريس دوكبري: "يقال في مجالس العزاء إنّ الحسين ضحّى بنفسه لصيانة شرف وأعراض الناس، ولحفظ حرمة الإسلام ولم يرضخ لقساوة وحقد يزيد، إذن تعالوا نتخذه لنا قدوةً، لنتخلص من نير الاستعمار، وأنْ نفضل الموت الكريم على الحياة الذليلة".

إذا أردنا الحديث عن معنى الحياة والموت بالمفهوم الحسيني يستحضر ذهننا كلمات مفاتيح عاشورائيّة قيلت في كربلاء: (إلّا قنطرة، إلّا سعادة، إلّا جميلًا).

إلّا قنطرة!

عشيَّة رحيله من مكّة وقف الحسين ﷺ خطيبًا يقول: "خُطَّ الموت على ولد آدم مخطَّ القلادة من جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف... ألا ومن كان باذلًا

فينا مهجته، موطّنًا على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإنّي راحلٌ مصبحًا إنْ شاء الله "[١٧]. يشبّه الحسين ﷺ الموت بالقلادة التي تعبّر عن معنيين يجتمعان فيها مع الموت: الإحاطة والجمال. الموت الذي تحدَّث عنه الإمام الحسين ﷺ في نهضته جميل جمال القلادة حول جيد الفتاة. فهو يجمّل الفتاة ويلفّ عنقها. لذا ورد أنَّ الحسين ﷺ في العاشر من المحرَّم كان كلَّما اشتدَّ عليه الأمر في كربلاء، واقترب من الشهادة سكنَتْ نفسه، وهدأَتْ جوارحه، وأشرقَ لونُه نورًا وبهاءً. قيل: انظروا إليه لا يبالي بالموت. فقال لهم الإمام الحسين ﷺ: "صبرًا بني الكرام! فما الموت إلاَّ قنطرة يعبر بكم عن البؤس والضرَّاء إلى الجنان الواسعة والنعيم الدائمة" .[١٨] نظرة الإمام الحسين ﷺ إلى الموت بأنّه (لقاء الله): "من كان فينا باذلًا مهجته، موطّنًا على لقاء الله نفسه فليرحل معنا"[١٩] .لا عجب فأبوه الإمام علي ﷺ يقول: "وَاللهِ لَابْنُ أَبِي طَالِبٍ آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ"، فمفهوم الحياة الدنيا بالنسبة إليه وقيمتها أنها (مزرعة الآخرة)، وهو الذي يقول: "لدوا للموت"، مع أنّه يحثّنا على التخطيط بعيد المدى: "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لأخرتك كأنك تموت غدًا"[٢٠].

إلاّ سعادة!

كتب الحسين ﷺ في وصيّته وقبل حركته نحو كربلاء الآية الكريمة: ﴿**وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ [هود/ ٨٨]. ورافقته في كلّ مرحلةٍ عدّة آيات قرآنيّة.

وإذا كان الهدف من إرسال الله ﷻ للرسول الحبيب ﷺ الرحمة للعالمين: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء/ ١٠٧]، وإذا كان الهدف من خروج الحسين ﷺ إلى كربلاء الإصلاح في أمّة جدّه وإعادة الحياة للقيم التي دعا إليها الرسول ﷺ يصبح الإصلاح القيمي ثمنه البذل والتضحية للحفاظ على المعنى الحقيقي للحياة وفائض الرحمة؛ لأنّ ثمن ديمومة الرحمة تقديم القربان من هنا كانت المعادلة: إلّا رحمة، إلّا سعادة!

كان الهدف من ثورة الإمام الحسين ﷺ في كربلاء ما قاله ﷺ: "إنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي ﷺ أُريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي وأبي" .ينتقد القرآن الكريم بشدّة الجبناء ويمدح المضحّين بأنفسهم والشجعان. وقد أثبت الإمام أنّه بحركةٍ واحدةٍ لوجه الله يمكن تغيير التاريخ والفصول وجعل الوردة الواحدة

ربيعًا دائمًا [٢١].

كانت القضية الإصلاح في الأمة والسعي إلى إحقاق الحق، فمزجت بين دور الرجل ودور المرأة في محاربة الظلم والوقوف في وجهه، أي أنّ ذلك الواجب لا يستثني أحدًا.

فالعزة ورفض الذّل من أوّليات القيم المحمديّة والثقافة العاشورائيّة. والعزّة تكون في ظلّ القرآن، وكذلك الرفاه والتقدّم المادي والمعنوي والأخلاق الفاضلة والقدرة والتغلّب على الأعداء، كلها في ظل القرآن[٢٢]. العزّة الواقعية والكاملة هي لله، ولكلّ من يختار أنْ يكون في جبهة الحق. وفي المواجهة بين جبهة الحقّ وجبهة الباطل، تكون العزّة لأولئك الذين يختارون أنْ يكونوا في جبهة الله، هذا هو المنطق القرآني ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا**﴾[٢٣]، ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[٢٤].

في الزيارة الشعبانيّة نقول للحسين عليه السلام: "أَشْهَدُ اَنَّ هذِهِ التُّرْبَةَ تُرْبَتُكَ، وَهذَا الْحَرَمَ حَرَمُكَ، وَهذَا الْمَصْرَعَ مَصْرَعُ بَدَنِكَ لا ذَليلَ وَاللهِ مُعِزُّكَ وَلا مَغْلُوبَ وَاللهِ ناصِرُكَ"، ويقول الحسين عليه السلام: "موتٌ في عِزٍّ خيرٌ من حياةٍ في ذلّ" [٢٥]. وقال عليه السلام لما عرضوا عليه الاستسلام والبيعة: "لا والله ، لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفرّ فرار العبيد"[٢٦].

وفي كربلاء حينما خيّروه بين البيعة أو القتال، قال: "ألا وإنّ الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين؛ بين السلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلّة، يأبى اللهُ ذلك لنا ورسولُهُ والمؤمنون، وحجورٌ طابت وطهرت، وأنوفٌ حميّة، ونفوسٌ أبيّة من أنْ نُؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام" .[٢٧] وعند اندلاع معركة الطفّ كان يكرّ على صفوف العدو مرتجلًا[٢٨]، وبعد أنْ ودّع عياله، حمل على الميمنة وهو يقول: " أَلْمَوْتُ أَوْلَىٰ مِنْ رُكُوْبِ الْعَارِ، وَالْعَارُ أَوْلَىٰ مِنْ دُخُوْلِ النَّارِ".

ولَمَّا أحاط عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ بالإمامِ الحسينِ عليه السلام وأصحابِهِ وأَيْقَنَ أَنَّهُمْ قَاتِلُوهُ، قَامَ عليه السلام فِي أَصْحَابِهِ خَطِيبًا، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: "أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ الْحَقَّ لَا يُعْمَلُ بِهِ، والْبَاطِلَ لَا يُتَنَاهَى عَنْهُ، لِيَرْغَبِ الْمُؤْمِنُ فِي لِقَاءِ اللهِ ، فَإِنِّي لَا أَرَى الْمَوْتَ إِلَّا سَعَادَةً، والْحَيَاةَ مَعَ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَرَمًا". إنّ السعادة كما عرفت تقابل الشقاوة [٢٩]؛ لأنّ الحرمان من الخير المادّي والمعنوي ينقض نظم الحياة ويحرم من الحياة الطيّبة، والتوفيق لهما توفيق للحياة الطيّبة.

وحول السعادة، ذكر أرسطو أنّ بعض الناس يحسب السعادة في اللّذة الحسيّة، وبعضهم في الجاه والشرف الاجتماعي، ويجدها الحكماء في التفكّر في الحقائق والغاية من الوجود، ويرى هو أنّها الغاية والخير الحقيقي من سلوك الإنسان وحياته الفعليّة[٣٠]، وفيما نقله ابن رشد عنه قوله: "السعادة للنّاس بما هم ناس إنّما هو اتصالهم بالعقل الذي تبيّن في كتاب النفس أنّه مبدأ محرّك وفاعل لنا"[٣١]. وقال الفارابي: "إنّ غاية الأخلاق هي نيل السعادة"[٣٢]. وذكر أنّ الإنسان يسعى لنيل الكمال والخير، وإذا ما فاز بالسعادة فليس وراءها غاية أعظم يطلبها، فهي الغاية في الخير[٣٣].

يقول أحد علماء النفس: إنّ الخوف من الموت يقود الإنسان إلى طرح الأسئلة التالية: لمَ، وإلى أين؟ ومعنى ذلك أنّ فكر الإنسان أكثر ما يشغله المصير النهائي للحياة البشرية[٣٤]. والإمام عليه السلام بذلك ليس خائفًا من الموت؛ لأنّه يمثّل لقاء الله ولقاء أوليائه، فهو عليه السلام مشتاق إلى أسلافه وهم أباؤه الذين سبقوه: جدّه صلى الله عليه وآله، وأمّه عليها السلام، وأبوه عليه السلام، ممثلًا ذلك الاشتياق بالشوق الذي خلّده التاريخ والقرآن الكريم، وهو اشتياق النبي يعقوب إلى ابنه يوسف عليه السلام الذي ابيضّت عيناه حزنًا على فراقه.

فعندما تكون الحياة مع الظالمين، لا يكون الموت إلّا سعادة! وعندما يُصبحُ الحقُّ مهملًا ويكونُ الباطلُ هو القاعدةُ المتَّبعةُ بين الناسِ، فإنّ المؤمنَ بين خياري الموتِ والحياةِ سوف يرى في الموتِ سعادةً وسوف يرى في الحياةِ ضيقًا وشدّةً، وهذا الأمرُ سوف يدفعُه إلى أنْ يبذلَ نفسَه للانتصارِ للحقِّ ومواجهةِ الباطلِ، فيكونُ في موتِه وشهادتِه قلبًا للموازين وتمهيدًا لعودةِ الحقِّ إلى مكانتِه التي جعلَه اللهُ فيها.

وإذا كانت ﴿**كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت**﴾[٣٥]: وكأنّ الموت نوع من الغذاء للإنسان والأحياء. فإنّ كلٌّ منا يتذوقه بحسبه. والتذوق إشارة إلى الإحساس الكامل، من يتذوق الطعام يتحقّق لديه الإحساس الكامل به، كلٌّ منا يتذوق الطعام بطريقة مختلفة عن الآخر.

إلّا إنّ ماهية الطعم الذي ذاقه القاسم بن الحسن عليه السلام يوم عاشوراء حتى قال لعمه الحسين عليه السلام عندما سأله كيف ترى الموت؟ غير معروفة لنا. إنّما الأمر في الكيفيّة، فعندما يسأل الحسين عليه السلام القاسم بن الحسن الذي لم يبلغ الحِلم: "كيف ترى الموت يا عمّ؟ فأجاب:

إنّي أرى الموت أحلى من العسل". فعندما تكون الحياة مع الظالمين، لم يعد يشكّل الموت إلّا سعادة! وعندما لم يرَ الحسين ﷺ في الموت إلّا سعادة، لم ترَ أخته زينب في شهادته إلّا جميلًا!

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ (إلّا) أداة حصر، لم تقل كلّ ما رأيته جميل، لم يقل سعيد بل إلّا جميلًا، إلّا سعادة!

إلّا جميلًا!

عندما يُقال إنّ الدمّ انتصر على السيف في عاشوراء وفي واقعة كربلاء، وهو كذلك، فإنّ عامل هذا الانتصار هو زينب ﷺ؛ وإلّا فإنّ الدمّ في كربلاء قد انتهى. واقعةٌ عسكرية تنتهي بهزيمةٍ ظاهرية لقوى الحقّ في ميدان عاشوراء. أما ذلك الشيء الّذي أدّى إلى تبديل هذه الهزيمة العسكرية الظاهرية إلى انتصارٍ قطعيٍّ دائم فهو زينب الكبرى ﷺ بمفردها[٣٦]. على رغم كلّ تلك المصائب، حين أراد العدو أنْ يشمت بها، قالت: "ما رأيت إلاّ جميلًا"[٣٧]. هذه عزّة ولي الله[٣٨].

بعد ملحمة عاشوراء، سأل ابن زياد زينب (سلام الله عليها): كيف رأيت فعل الله بأهل بيتك؟ فقالت ﷺ: "ما رأيت إلا جميلًا، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجون إليه وتختصمون عنده فانظر لمن الفلج يومئذ" فأي جميل هو هذا؟ لاحظوا هذا الجميل بما نُقل من أن زينب الكبرى لم تترك صلاة الليل حتى في ليلة الحادي عشر. طول مرحلة الأسر لم يضعف انقطاعها إلى الله وتوجهها إليه وتعلقها به، نعم، لم يقلّ بل ازداد. هذه المرأة هي القدوة[٣٩]. "هذه هي المرأة الّتي تُعدّ قدوةً، قدوةً لكلّ الرجال العظماء والنساء العظيمات في العالم. "خطبت بتلك القوّة، فحقّرت العدو وكذلك استهانت بالمصائب التي فرضها العدو. (حيث قالت له) أتريدون أنْ تغلبوا أهل بيت النبي (صلى) بخيالكم الباطل وتذلّونهم؟ ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[٤٠]. زينب الكبرى هي تجسيد للعزّة كما كان الحسين بن عليّ ﷺ في كربلاء تجسيد للعزّة في يوم عاشوراء. هذه العين الناظرة إلى الله تشاهد حقيقةً جميلةً من تلك الواقعة ومن تلك الدماء المسفوحة ومن تلك المصيبة الجسيمة "ما رأيت إلّا جميلًا".

لقد رأى علي ﷺ الله ﷻ في كلّ شيء: "ما رأيتُ شيئًا إلَّا ورأيت الله قبله وبعده ومعه"، ولم يجهله الحسين ﷺ في شيء : "إلهي علمت باختلاف الآثار، وتنقلات الأطوار أنّ مرادك مني أن تتعرف إلى في كل شيء، حتى لا أجهلك في شيء" (من دعاء الحسين ﷺ يوم عرفة)، وتشبّعت زينب (سلام الله عليها) من نظرات الله وأياديه وباتت تبحث عن جماله تعالى في كلّ فعل. فلم ترَ في أشد لحظات المحنة (إِلَّا جَمِيلًا)، فمن يثق بحبيبه يطمئن أنّه لن يصيبه منه إلّا الخير، فلم ترَ زينب من الله بعد فاجعة كربلاء إلّا جميلًا. تلك المصائب كلّها جميلةٌ في عين زينب الكبرى؛ لأنّها في سبيل الله وفي سبيل إعلاء كلمته، ولحفظ الإسلام، هذا العمل العظيم للملحمة الزينبيّة. لماذا إلّا جميلًا؟ لأنّ الهدف تحقق، تحلف زينب في خطبتها في الشام: "فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا".

وهنا تجدر الإشارة كيف تأسّت الأسيرات اللبنانيّات في فترة الاحتلال الإسرئيلي للبنان بواقعة عاشوراء[٤١]؛ فلدى اعتقال قوات الاحتلال الإسرائيلي لسيّدات لبنانيّات أثناء فترة الاحتلال (قبل التحرير عام ٢٠٠٠) كانت زينب ﷺ، والحسين ﷺ، والعباس ﷺ، والسجاد، والكاظم ﷺ قدوتهن. تخبرنا إحداهن: "كنا نستحضر صبر السيدة زينب وأهل البيت ﷺ وكم تحمّلوا، فبمجرد أنْ تتخيلي أنّ السيدة زينب كانت أسيرةً تصبحين أكثر تحمّلًا. لذلك عشنا هذه الصلابة الحقيقة وشعرنا بها في الأسر، وما زلنا حتى اليوم حين نسمع مجلس السيدة زينب ﷺ نعيش الحالة ذاتها، فكربلاء أصبحت مؤثرةً فينا أكثر بعد الاعتقال؛ لأنّ هذه المواقف عشناها، عانينا السبي والظلم". وتلفت أخرى فتقول: "كانوا يحاوطوني وأنا أتذكر السيدة زينب ﷺ كيف كانت بأيدي الأعداء". وتقول ثالثة: "كنّا تقتدي بالإمام زين العابدين ﷺ، كان أسيرًا وكان يقاوم بالقلم بعد أسره، وكانوا كلّما حرموه وسيلة من وسائل المقاومة يستبدلها بأخرى، وظل يقاوم".

تُذكّرنا عاشوراء كلَّ عام بالمعنى الحقيقي للحياة: "لا أرى العيش مع الظالمين إلّا برمًا". تُعلّمنا عاشوراء أنّ كلّ ذليلٍ هو ميتٌ مهما بلغ من العمر. وكلّ كريمٍ حيّ، بل يزداد حياةً بعد تضحيته بحياته لأجل القيم "وحياته بالبر أكثر من العمر". تأتي عاشوراء لتؤكّد لنا قول الرسول الحبيب ﷺ: "فوق كلّ ذي برٍ برٌ حتى يُقتل في سبيل الله فإذا قُتل في سبيل الله

فليس فوقه بر". وأن "موت الإنسان بالذّنوب أكثر من موته بالأجل، وحياته بالبرّ أكثر من حياته بالعمر" (الإمام الجواد عليه السلام).

تحيينا عاشوراء كلّ عامٍ بدل أنْ نحييها: العبّاس يرمي الماء، فيغدوا أميرًا للماء يحيي به الأنحاء الميتة في الأمّة.

الهوامش

١- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان، ١٢/ ٣٤١.
٢- م.ن، ١٢/ ٣٤١.
٣- النور، المجلّد ٤/ ٥٥٩.
٤- المكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٨/ ٢٠٨.
٥-الطباطبائي، محمد حسين ، تفسير الميزان، ١٢/ ٣٤٢ (بتصّرف)
٦-. م.ن، ٣٤.
٧- م.ن، ١١/ ٣٥٣.
٨- قرائتي، محسن، تفسير النور، ٤/ ٣٤٢- ٣٤٧.
٩-. الطباطبائي، محمد حسين ، الميزان، ١١/ ٣٥٧.
١٠-م.ن، ٩/ ٤٦ - ٤٧
١١- قرائتي، محسن، تفسير النور، ٣/ ٢٧٨. (بتصّرف)
١٢- الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٤/ ٢٣٣.
١٣- م.ن، ٢٣٤.
١٤- الأنعام/ ٣٦.
١٥- الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٤/ ٢٣٥.
١٦- م.ن، ٢٣٦.
١٧-لمجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٤٤/ ٣٦٦.
١٨-م.ن، ٦/ ١٥٤.
١٩-لمصدر السابق، ٤٤/ ٣٦٧.
٢٠- الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، ١/ ٣٧، ح١٢٩.
٢١- قراءتي، محسن، "القرآن الكريم والامام الحسين عليه السلام"، إعداد جمعية القرآن الكريم، ملخص بتصّرف.
٢٢- السيّد علّي الخامنئي.
٢٣- فاطر/ ١٠.
٢٤- المنافقون/ ٨.
٢٥-بن شهر آشوب، محمد بن على، مناقب آل أبي طالب، ٤/ ٢٢٤.
٢٦- المفيد، محمدبن محمد، الإرشاد، ٢/ ٩٨.
٢٧-. ابن طاووس، على بن موسى، اللهوف، ٥٩.
٢٨- م.ن، ٧٠.
٢٩- الجوادي آملي، عبدالله، أدب فناء المقرّبين، شرح الزيارة الجامعة، في توضيح سعد من والاكم، ٨/ ١٥٢.
٣٠- أرسطو، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ١/ ١٧٥ -١٩٠.

٣١- الفارابي، أبو نصر، تفسير ما بعد الطبيعة، ٣/ ١٦١٢.
٣٢- م.ن، السياسة المدنيّة، ٧٩.
٣٣- م.ن، الأعمال الفلسفيّة، ٢٢٧-٢٢٩. (بتصّرف)
٣٤- غالب، مصطفى، تغلب على الخوف، ٧٣.
٣٥- آل عمران/ ١٨٥.
٣٦- الخامنئي، علي، من خطابٍ له في ذكرى ولادة السيدة زينب ويوم الممرضة، ٢١-٤-٢٠١٠.
٣٧-ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف ص ١٦٠.
٣٨-من خطاب السيّد علي الخامنئي ٢٠/ ١١/ ٢٠١٣ م.
٣٩- من خطاب له ٠٨/ ٠٢/ ٢٠١٠م.
٤٠- المنافقون/ ٨.
٤١- للاطلاع على المزيد راجع كتاب: سكوكع، دحنون والزيتون! (حكاية معتقل بحياكة مطرّزات).

المصادر والمراجع

القرآن الكريم
* مفاتيح الجنان
* ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب، قم، مكتبة العلامة، ١٣٧٩هـ.
* ابن طاووس، سيد علي بن موسى بن جعفر، اللهوف في قتلى الطفوف، دار المحجّة البيضاء، بيروت، ٢٠١٤م.
* أرسطو، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، مطبعة دار الكتب المصرية، ٢٠١٧م.
* الآملي جوادي، عبدالله، أدب فناء المقرّبين، شرح الزيارة الجامعة، دار الإسراء للطباعة والنشر، ٢٠١٣.
* الخامنئي، علي، من خطاب له ٢٠/ ١١/ ٢٠١٣ م، ومن خطاب له ٠٨/ ٠٢/ ٢٠١٠م، و٢١-٤-٢٠١٠
* الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، [التنقيح الثاني]، قم، دار الحديث، ١٣٧٥.
* زين الدين، بتول، "سكوكع، دحنون والزيتون!" (حكاية معتقل بحياكة مطرّزات)، تاريخ الأسيرات اللبنانيات في معتقل الخيام، الرابطة اللبنانية الثقافيّة، بيروت، لبنان، ٢٠٢٣م.
* الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، بيروت، لبنان، مؤسسة الأعلمي، ٢٠٠٦م.
* غالب، مصطفى، تغلب على الخوف، ط ٢، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩١ م.
* قراءتي، محسن، القرآن الكريم والإمام الحسين عليه السلام، ط١، بيروت، جمعية القرآن الكريم، د، ت.
* ــــــــــ، تفسير النور، ط١، بيروت، لبنان، دار المؤرخ العربي، ١٤٣٥ هـ.
* المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، تحقيق: محمد الباقر البهبودي، ط٢، بيروت، لبنان، الناشر: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م.
* المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد، النجف الأشرف، الناشر: المطبعة الحيدرية، ١٩٦٢.
* المكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ط١، بيروت، لبنان، دار الولاء، ٢٠١٨م.